جدل العلاقة بين اللغة والهوية فيفكر الفيلسوف جاك دريدا

الدكتورة: عالية زروقي
جامعة حسيبة بن بوعلي- الشلف.

الملخّص:
تتمحور دلالة كلمة هوية حول الذات والحقيقة والماهية، وتعرّف بأنها وعي الإنسان وإحساسه بانتمائه إلى مجتمع أو أمة أو جماعة أو طبقة في إطار الانتماء الإنساني العام، أما اللغة فتعتبر عنوان الوجود والهوية لكونها المستودع الأمين الذي تختزن به مقومات الانتماء وذاكرة المستقبل.
ويعدّ جاك دريدا من أهم الفلاسفة الذين اعتنوا بتحليل علاقة اللغة بالهوية ضمن كتاب: "أحادية الآخر اللغوية أو في الترميم الأصلي" الذي يعتبر متنا يتداخل فيه اللغوي بالتاريخي، والفلسفي بالديني والسياسي وتدور فكرته المحورية حول إمكانية اللغة في التأسيس للهوية ومن ثم التأسيس للمواطنة، وهل في مقدور اللغة لحالها أن تشكل ماهية الهوية والمواطنة على حدّ سواء إلى جانب الإشكالية المتعلقة بمسألة الانتماء الهوياتي المتأرجح بين أرض ودولة وطائفة تبتعد الواحدة منها عن الأخرى، بمعنى هل الانتماء الحقيقي يكون للأرض أم للدولة أم للديانة؟ أم أنه لا هذا ولا ذاك، لأن الانتماء الحقيقي والأصيل يكون للغة التي نتحدث بها ونبدع بها وفيها؟
الكلمات المفتاحية: اللغة، الهوية، المواطنة، الانتماء،

Summary:
Identity is defined by human awareness and sensitivity to belonging to a society, nation, group or class in the sense of general human belonging. Language is the title of existence and identity, which stores the elements of belonging and memory of the future, and between the identity and language has been established many philosophical studies that seek to clarify the limits of the relationship between language and identity, and how to guide the first of the second, and identify its features and peculiarities.

Jacques Derrida is one of the most important philosophers who have taken care to analyze the relationship of language to identity in the book: "Monotheism of the other language or in the original restoration," which is intertwined linguistic linguistic historical, philosophical and religious and political, and revolves the central idea about the possibility of language in the establishment of identity and the establishment of citizenship, Language can, by definition, constitute identity and citizenship. And the question of identity belonging to the swing between land and state and a community moving away from each other, in the sense Is the real affiliation is the land or the state or religion? Or is it neither, because true and genuine affiliation is the language?
key words:
Language, identity, citizenship, affiliation,

مقدمـــة:

تتمحور دلالة كلمة هوية حول الذات والحقيقة والماهية، وتعرّف بأنها وعي الإنسان وإحساسه بانتمائه إلى مجتمع أو أمة أو جماعة أو طبقة في إطار الانتماء الإنساني العام، أما اللغة فتعتبر عنوان الوجود والهوية لكونها المستودع الأمين الذي تختزن به مقومات الانتماء وذاكرة المستقبل، وبين هاته وتلك أُقيمت جملة من البحوث

والدراسات الفلسفية التي تسعى إلى توضيح حدود العلاقة بين اللغة والهوية، وفي كيفية توجيه الأولى للثانية، وتحديد معالمها وخصوصياتها.

ويعدّ جاك دريدا من أهم الفلاسفة الذين اعتنوا بتحليل علاقة اللغة بالهوية ضمن كتاب: "أحادية الآخر اللغوية أو في الترميم الأصلي" الذي يعتبر متنا يتداخل فيه اللغوي بالتاريخي، والفلسفي بالديني والسياسي، كتاب ينتقل فيه دريدا من أقاليم اللغة بحمولاتها الحاضرة، ودلالاتها الغائبة إلى البحث في أقانيم الهوية بمسمياتها المتفردة تارة، وألاعيبها المكثرة تارة أخرى، وتدور الفكرة المحورية حول إمكانية اللغة في التأسيس للهوية ومن ثم التأسيس للمواطنة، وهل في مقدور اللغة لحالها أن تشكل ماهية الهوية والمواطنة على حدّ سواء إلى جانب الإشكالية المتعلقة بمسألة الانتماء الهوياتي المتأرجح بين أرض ودولة وطائفة تبتعد الواحدة منها عن الأخرى، بمعنى هل الانتماء الحقيقي يكون للأرض أم للدولة أم للديانة؟ أم أنه لا هذا ولا ذاك، لأن الانتماء الحقيقي والأصيل يكون للغة التي نتحدث بها ونبدع بها وفيها؟

وبذلك فإن التتبع لما ورد في تلك الوثيقة الفلسفية؛ من مباحث متعددة، وطروحات متباينة بما فيها من نقض للمسلمات، ونفي للمثبتات بأسلوب تفكيكي يهدم ما كان ليقدم موقفا جديدا من منظور خاص، يمكّن من توضيح آراء جاك دريدا الفلسفية حول دور اللغة في تشكيل الهوية وصياغتها.

1- في مفهوم اللغة:

تحظى اللغة منذ القدم باهتمام المفكرين والباحثين، من حيث المفاهيم التي تحدد أطرها العامة، وتصوغ أهميتها ودورها في التعريف بالأمم وخصوصياتها التعبيرية عن المقاصد المراد إبلاغها، إذ نجدها عند <<ابن جني (392هـ/1002م) أنها: "أصوات يعبر بها كل قوم عن أغراضهم"، أما عند ابن سنان الخفاجي (466هـ/1073م) فهي" عبارة عما يتواضع عليه القوم من الكلام">>[1]، وهو ما يؤدي <<إلى الكشف عن ثلاثة عناصر (منطوق بها) فيما يمكن أن نسميه "المنظومة اللغوية"، هي: الأصوات، والقوم أو الناس، والأغراض. والربط بين الأصوات والأغراض يشير إلى مسألة معروفة، هي أن اللغة في حقيقتها انعكاس للفكر، فما نسمعه من أصوات ليس في الحقيقة سوى مرآة للفكر>>[2]. وإذا كان ابن جني قد عرَّف اللغة التعريف آنف الذكر، فإن << أرسطو قبل ذلك بكثير عرفها بأنها "نتاج صوتي مصحوب بعمل الخيال من أجل أن يكون التعبير صوتاً له معنى"، كما أن أوتويسبرسن بعد ابن جني بمئات السنين يرى أن "جوهر اللغة نشاط إنساني، نشاط من قبل الفرد ليجعل نفسه مفهوماً من الآخرين، ونشاط من قبل الآخرين ليفهموا ما يدور في عقل الفرد" >>[3]، ونجد بعض التعريفات الحديثة للغة، فهي عند << فردناد دي سوسير" نظام من الدلائل المعبر عما للإنسان من أفكار"، أما تشومسكي فيرى أنها " ملكة فطرية عند المتكلمين بلغة ما، لتكوين وفهم جمل نحوية"، وعند سيمون بوتر نجد أن اللغة "نظام عرفي من الرموز الصوتية تستخدمه جماعة لغوية معينة بهدف الاتصال">>[4].

اللغة" هي أقرب الأشياء إلى الإنسان، ومن ثم إلى الجماعة التي تتحكم فيها. إنها أشبه ما تكون بالروح، أو هي الروح، وما الفرق بين هذه وتلك سوى أن ما نطلق عليه "روح" تكون به حياة فرد، وما نطلق عليه "لغة" تكون به حياة

---

[1] عبد الله البريدي، اللغة هوية ناطقة (منظور جديد يمزج اللغة بالهوية والحياة)، كتاب المجلة العربية، الرياض –المملكة العربية السعودية، 1434هـ،ص 19

[2] فيصل الحفيان، اللغة والهوية: إشكاليات المفاهيم وجدل العلاقات، التسامح، مجلة فصلية فكرية إسلامية، العدد الخامس، 1425هـ/2004، موقع: http://tasamoh.om/index.php/nums/view/6/89 بتاريخ: 2015/11/08. على الساعة: 09:43 صباحا.

[3] المرجع نفسه

[4] عبد الله البريدي، اللغة هوية ناطقة، ص19.

جماعة، والروح تبعث الحياة في جسد واحد، واللغة روح جماعية تملك طاقة كبيرة تبعث الحياة في أجساد كثيرة. والشواهد على ذلك كثيرة، فباللغة نعيش، نصحو بها، وننام عليها، في مرآتها تنعكس دواخلنا، وبوساطتها نتصل بالآخرين من أبناء جلدتنا، ونتواصل معهم، لكننا غافلون عن هذه العلاقة لشدة قربها منا، وقوة التصاقها بحياتنا. وبذلك فإن <<اللغة أداةً للتفكير للإنسان، تؤثر فيه وتتأثر به، فهذه هي حقيقة اللغة وجوهرها، أما أصواتها وكلماتها وتركيبها فهي لبوس هذه الحقيقة، وهو لبوس –على الرغم من شكليته– علامة خصوصية، ومصدر اعتزاز>>[5].

2- في مفهوم الهوية:

والهوية كما وردت في موسوعة لالاند الفلسفية بما يقابلها في اللغة الفرنسية: Identité، وفي الإنجليزية:Identity، تعني <<ميزة فرد أو كائن يمكن من هذا الوجه تشبيهه بفرد يقال عنه إنه متماه، بالمعنى ب، أو أنه "هو ذاته" في مختلف فترات وجوده: " هوية الأنا" >>[6]، أما في في المعجم الفلسفي، فنجد العديد من المفاهيم، من بينها ما قدمه الفارابي في قوله: << هوية الشيء، وعينيته وتشخصه، وخصوصيته، ووجوده المنفرد له، كل واحد، وقولنا إنه هو إشارة إلى هويته وخصوصيته، ووجوده المنفرد له الذي لا يقع فيه اشتراك>>[7]، وبالتالي فإن كلا المعنيين يشيران إلى أن هوية الشيء ما يميزه عن غيره، و << هويتي هي ما يكشف عن حقيقتي، ويحدد طبيعتي، بدلالة السمات التي أعرّف بها عن نفسي، ومن هو على شاكلتي، مثلما أن هوية الآخر هي ما يكشف عن حقيقته ويحدد طبيعته، بدلالة السمات التي يعرف بها عن نفسه، ومن هو على شاكلته>>[8]، فالهوية هي ما يسمح للذات من إدراك ذاتها وإدراك غيرها، و<< هوية الإنسان هي مغايرته للكائنات الأخرى، إنه إنسان وعاقل وهذا هو أول وأبسط مستوى توضع فيه الهوية الإنسانية>>[9].

والهوية ليست معطى ثابتا لا يتغير، وإنما هي في حالة سيرورة شاملة، مع ما قد يبدو من ثبات ظاهري أحيانا[10]، كما أنها ليست معطى نهائي، بل هي شيء يتشكل، شيء يصير[11]، وفقا لمعطيات ومرتكزات معينة.

ومادامت الهوية تعني الأفراد والجماعات وتختص بتمييزهم عن غيرهم، فإنه << لا وجود لهوية خارج المجتمع والتاريخ، فالأمة وحدها تملك الهوية، سواء كانت جماعة (صغيرة أو كبيرة، بشرط تماثل أفرادها وانصهارهم في الوجود المجتمعي الجماعي). و أي فرد لا يستطيع أن يستقلّ عن الجماعة (الأمة) في هذا الإطار، أي أنه في حاجة إلى هوية تجمعه مع آخرين، لأنه ليس بإمكان أية قوة أن تفرض هوية ما على مجموعة من الناس من دون اختيار حر من طرفهم>>[12]، وبالتالي لا يمكن للفرد أن يعيش دون هوية، كما أن هذه الأخيرة لا تُفرض عليه، وإنما هي اختيار وانتماء يشعر به الفرد تجاه جماعة معينة، و<< الانتماء إلى جماعة محددة يعني ضمنيا وجود جماعات أخرى (. . .)

---

[5] فيصل الحفيان، اللغة والهوية: إشكاليات المفاهيم وجدل العلاقات.

[6] أندريه لالاند، موسوعة لالاند الفلسفية، المجلد الأول: A-G، منشورات عويدات، بيروت- باريس، تعريب: خليل أحمد خليل، إشراف: أحمد عويدات، ط2، 2001، ص 607.

[7] جميل صليبا، المعجم الفلسفي بالألفاظ العربية والفرنسية والإنجليزية واللاتينية، ج2، دار الكتاب اللبناني، لبنان، ص530.

[8] علي عباس مراد، إشكالية الهوية في العراق..الأ؟صول والحلول، رياض زكي قاسم محررا، الهوية وقضاياها في الوعي العربي المعاصر، ص296.

[9] فريدة النقاش، العرب وأسئلة الهوية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مصر، 2014، ص07.

[10] ينظر: المرجع نفسه، ص 08.

[11] ينظر: محمد عابد الجابري، مسألة الهوية، العروبة والإسلام...والغرب، مركز دراسات الوحد العربية، بيروت- لبنان، ط4، سبتمبر 2012م، ص10.

[12] عفيف البوني، في الهوية القومية العربية، ص24.

فالفرد يعرّف نفسه بطريقة تضعه داخل حدود جماعة معينة، وهو بذلك يعلن من "لا يكون"، أي إلى أية جماعة لا ينتمي>>[13]، من هنا فإن الهوية تنبني على المستوى الإفرادي، أي من شعور الشخص بالانتماء إلى الجماعة أو الإطار الإنساني الذي يشاركه منظومة القيم والمشاعر والاتجاهات. << فالهويات تتفاعل وفق انتماءاتها الاجتماعية والثقافية والسياسية والعلمية والمهنية، والهوية الاجتماعية ضرورية لإمداد افنسان بالأمان والجدارة والقبول والدعم الاجتماعي>>[14].

وقد عرض المنظّرون لمسألة الهوية، وحصروا العوامل التي تشكل الهويات فيما يلي: الجنس أو الأصل أو العرق، الدين، التاريخ، الجغرافيا (المكان)، التكوين النفسي – الثقافي، الإرادة أو المشيئة الاقتصاد، بالإضافة إلى عامل اللغة.[15]

3- اللغة أحد مقوّمات الهوية:

إذا كانت اللغة هي تلك الخاصية الإنسانية التي تعكس العقل الجمعي لفئة من البشر، وتعبر عن رؤيتهم للعالم من حولهم، وإذا كانت الهوية هي الحقيقة والذات والماهية. فإنه يمكن القول دون أن يكون ثمة افتعال: إن اللغة تعد صورة حية لحقيقة أصحابها وذاتهم وماهيتهم.

واللغة هي أقدم تجليات الهوية لدى الجماعات البشرية، إذ لا شك أن تَشَكُّلَ هذه الجماعات قد ارتبط ببحثها عن وسيلة للتفاهم. وإذا كنا لا نعرف – على وجه الدقة – طبيعة هذه الوسيلة الآن -فإن المؤكد أنها مع بعض التجاوز "لغة"، وأنها هي التي مكنتها من أن تُكَوِّن مجتمعاً أحس أفراده بأن شيئاً مشتركاً يجمعه مع من يتفاهم معهم من ناحية، ويميزه أو يميزهم عن غيرهم من ناحية أخرى.

واللغة تبدأ هويةً بسيطةً، ثم تَغْنَى وتتعمق مع مرور الزمن، فهي أشبه بالوعاء الذي تثريه الأيام، ذلك أن العلاقات الإنسانية المتشابكة داخل الأسرة اللغوية، والعلاقات مع الأسر الأخرى - والأحداث والآمال والآلام، كل ذلك يصب في اللغة، حتى يصبح الصوت اللغوي مَنْجَماً شعوريّاً واجتماعيّاً يربط بين الناس، ويوثق علاقاتهم، ويحدد ملامحهم، ويوحد نظرتهم إلى أنفسهم، والآخرين، والعالم والكون من حولهم. إن العلاقة بين اللغة وأصحابها علاقة تفاعلية، يصعب معها الفصل بين الطرفين، فهي هم، وهم هي، وبعبارة أخرى هي (اللغة) الهوية، وهي (الهوية) اللغة.

وعلماء الاجتماع ينظرون إلى اللغة على أنها حقيقة وظاهرة اجتماعية، وتعبير عن تنظيم اجتماعي لمجتمع معين. ومن هنا نفهم تعلق كل شعب بلغته؛ لأن الأفراد دائماً يرتبطون بأبنيتهم الاجتماعية كأن هؤلاء يرون في اللغة أيضاً مظهراً من مظاهر الهوية، أو الوجود.

ويربط أحد الباحثين بين مستقبل اللغة ومستقبل الهوية على أساس أن اللغة إحدى قسماتها، ولا شك أن ربطه هذا صحيح، وبخاص في حال لغة كالعربية، ترتبط بالدين، وتكتسب قداسة حتى عند غير الناطقين بها فضياعها يعني ضياع أحد المقدسات. لكن الله – سبحانه – قد حفظها من التفكك والموت.

وعلى الرغم من ذلك فإن اللغة هوية، وليست "الهوية" لغةً، بمعنى أن اللغة ليست المقوم الوحيد للهوية، وإن كانت من أهم هذه المقومات، وأشدها خصباً وعمقاً وتركيباً. إن العلاقة بين اللغة والهوية هي علاقة الخاص بالعام، فالهوية أعم من اللغة؛ لأن الهوية لها تجليات عديدة غير "اللغة" إذ إنها (الهوية) ببساطة متناهية ليست سوى تلك

---

[13] عزيز حيدر، دور المقاومة الثقافية في صياغة الهوية الجماعية، دراسة في الهوية الجماعية للعرب في إسرائيل، رياض زكي قاسم محررا، الهوية وقضاياها في الوعي العربي المعاصر، ص 401.

[14] عبد الله البريدي، اللغة هوية ناطقة، ص22.

[15] ينظر: فيصل الحفيان، اللغة والهوية: إشكاليات المفاهيم وجدل العلاقات.

القواسم المشتركة أو القدر المتفق عليه بين مجموعة من الناس، ذلك الذي يميزهم ويوحدهم، وليست اللغة وحدها التي تقوم بهذه المهمة، وهذا يعيدنا إلى المقومات الأخرى للهوية[16].

وهنالك العديد من الآراء التي << تؤيد فكرة أن اللغة هوية، وليست مجرد أداة تواصل، وثمة مقولات مكبسلة ذات دلالة باذخة في هذا السياق، من قبيل " هوية كل مجتمع تتأسس على لغته"، و" اللغة هي أم الرموز الثقافية المشكلة لهوية الإنسان"، و" الهوية تقع في صميم ما تعنيه اللغة، وفي آلية عملها وكيفية تعلمها". . . >>[17] وهي مقولات ترتبط فيها الهوية باللغة وتتحدد من خلالها.

ومن الآراء الفلسفية التي تربط اللغة بالهوية، ما يقوله <<الفيلسوف الألماني مارتن هايدغر (1889-1976): " إنّ لغتي هي مسكني، وهي موطني ومستقري، وهي حدود عالمي الحميم ومعالمه وتضاريسه، ومن نوافذها، ومن خلال عيونها أنظر إلى بقية أرجاء الكون الواسع". . أما جان بول سارتر (1905-1980م)، فيقرر ب "إنني لغة" >>[18]، وهي مقولات تجعل من اللغة معادلا للهوية ومحددا لها.

ويقدّم الباحث **عبد الله البريدي**حوصلة تبرز موقفه الخاص تجاه جدلية العلاقة بين اللغة والهوية، والتي يحددها في ثلاثة تعاريف، هي كالآتي:

<< التعريف الأول:

" اللغة = رموز ترتضيها الذات لنقل أفكارها ومشاعرها في قالب يتناغم مع هويتها"

التعريف الثاني:

" اللغة = هوية معبّر عنها بموز مفهومة "

التعريف الثالث:

" اللغة = هوية ناطقة" >>[19] ويفسّر هذه التعريفات من حيث أن مفردات اللغة تكتسب معاني مختلفة بحسب هوية الناطق بها، فاللغة لا تكون (أداة توصيل للأفكار والمعاني) إلا إذا انغمست في هوية صاحبها، وانبثقت منها، وهذا أمر محسوس ومجرب[20]. وهي ما تلخص لديه مقولة اللغة هوية ناطقة. وبذلك فإن اللغة جزء مهم ومقوم أساسي من مقومات الهوية، والتي لا يمكن تحديدها من دونه، كما أن نهضة أية أمّة تنطلق من نهضة لغتها، وأي انحطاط يصيب اللغة أو أي ضعف يعتريها فيؤثر بالضرورة في هوية هذه الأمة .

هذا عن الواقع العام لعلاقة اللغة بالهوية، ولكن كيف هي حالها من منظور الفيلسوف **جاك دريدا** من خلال كتابه "أحادية الأخر اللغوية".

4- جاك دريدا وجدلية العلاقة بين اللغة والهوية:

جاك دريدا (Jacques Derrida) فيلسوف فرنسي من مواليد الجزائر، صاحب نظرية التفكيك .أما كتاب **أحادية الآخر اللغوية** يمثل لحظة مميزة في ميراث دريدا الفلسفي والإبداعي بعامة يسميها المترجم: اللحظة النوستالجية، ذلك أن أحادية الآخر اللغوية متن يتداخل فيه اللغوي بالتاريخي، الفلسفي بالديني والسياسي بكل ما يحيل إلى البحث والتنقيب في أقانيم الهوية وخطاطاتها المنكسرة كما يحلو لدريدا أن ينعتها بذلك . ولقد قام المؤلف بتحليل أحادية

---

[16] ينظر: المرجع نفسه.

[17] عبد الله البريدي، اللغة هوية ناطقة، ص 23.

[18] المرجع نفسه، ص 28.

[19] المرجع نفسه، ص 30.

[20] ينظر: المرجع نفسه، ص 31.

الآخر اللغوية في مستوين اثنين : المستوى الأول سماه البعد النوستالجي في المسألة اللغوية الهوياتية لدى المؤلف، والمستوى الثاني سماه البعد الهرمينوطيقي في المسألة ذاتها[21] .

جاك دريدا الذي ولد في الجزائر لعائلة يهودية، والفرنسي واللافرنسي، والجزائري واللاجزائري، والباحث عن عالم لا يوجد فيه مجال للاستقطاب، وتحديداً تلك الأحادية المطلقة؛ ولهذا يبدو الكتاب شكلاًمن السيرة أو البحث الفكري، ولكنه قبل كل شيء نص لا يمتلك حدوده النهائية، إنه تساؤلات لا تصل إلى حسم، وقيم في إرجاء لامتناه، كما هي تلك الذوات التي لا تمتلك إلا لغة، ولكنها ليست لغتها، وهنا نقرأ محاورة جاك دريدا لعبد الكبير الخطيبي[22] الذي واجه إشكالية عشق مزدوج للغتين، في حين أن دريدا منشغل أكثر بمعنى أن تكون مالكا فقط للغة واحدة، ولكنها ليست لغتك، إنها لا تمتلكك، ولا أنت تتملكها، وعند محاولة الانفكاك، فإن طريقك لن تكون إلا في هذه اللغة، حيث أنك خارجها، وداخلها في الآن، إنها صوتك الغريب واللامألوف، ولكنك لا تملك غيرها، إنها معضلة ذاتية أنطولوجية عميقة، فثمة نسق شديد العطب لمعنى التكوين، وهنا نتلمس تلك المستويات المعقدة في بناء دريدا الذي كان في توترات الولاء، والجنسية، والهوية، فهو ليس فرنسيا، وليس جزائريا، ولغته التي كانت مؤهلة لأن تكون لغته الأم تعرضت للإقصاء، فالعربية، وكما الأمازيغية قد حوربتا في السياقات الثقافية، والمدرسية من قبل المستعمرين الفرنسيين، ولذا لم تعد تلك اللغات المحلية خياراً، فالسيد لا يملك سوى لغته الخاصة التي ربما لا تكون لغته، إنما يغتصبها بالمعنى الاستعماري، وكأنها شيء يخصه، وهذا الدور الأول في حين يأتي الثاني ممثلاً بفعل الثورة من منطلق أنه ليس هنالك من تملك مطلق للغة.[23]

في هذا البحث العميق لدريدا حول معنى اللغة، وكيف تكون اللغة ملاذاً غريباً، وشكلاً من الغربة، إنها حالة متقدمة من الاغتراب، وهنا نستدعي تلك التداعيات التي نتجت بفعل الاستعمار الكولونيالي اللغوي الذي أصاب عمقاً في دول المغرب العربي، وأفريقيا، وسائر المستعمرات، إنها البقايا التي لا تزال تمارس حضورها، كما فعل الاستعارة اللغوية التي لا تكون فعلاً اختيارياً، ولكن الانفكاك منها لا يبدو خياراً، ومقاومة تلك اللغة يبدو شكلاً من الانتقاص؛ لأنك تتحدث اللغة التي لا تريدها، ولا تمتلكها، ولا تنتمي لها، ولا هي شكل من المكان أو رائحة الزمن، وتلك الحدود، فلغتي الخاصة كما يقول دريدا لم ترقَ بعد إلى مستوى اللغة التي يمكن تمثلها، ولغتي، أي اللغة الوحيدة التي أنوي التحدث، ومن ثمة التفاهم بها، هي في الواقع لغة الآخر. ومن هنا فإننا نتحول إلى مظهر من مظاهر الاغتراب.

إن دريدا معني بفكرة، أو مشكلة وحدة اللغة، في تشكيلها الطباقي، أي ليست الأنا النحوية بمقدار تلك الأنا الثقافية الشاسعة، والقابلة لكل معطيات اللغة، والدين والأدب، وهذا ما يفضي إلى معضلة الهوية والكتابة بالتشكيل السّيري الذاتي، دريدا يعمل على نقض فكرة معنى أحادية اللغة، أو تلك اللغة الواحدة، ولا سيما في زمن هيمنة بعض اللغات، فالبشر تتوزعهم الرغبات لتعلم لغة الأسياد، بهدف البحث عن حياة أفضل، إنها عملية تتسم بتكوينها المعقد، ولهذا تتحول الكتابة عن الذات معضلة حقيقية، فالمنع عن التواصل الذي مارسه المستعمرون الفرنسيون تجاه السكان المحليين، هو منع يهدف إلى خلف مفهوم اللغة الواحدة، ولكنها هنا تتسع لتتحول إلى إشكالية الهوية، وكما يقول دريدا، فإن هذا المنع يتطلب مني أن أخترع لغتي، ولكن قبل كل شيء أن أخترع أناي في الوقت عينه.

---

[21] جاك دريدا، أحادية الآخر اللغوية أو في الترميم الأصلي، تر: عمر مهيبل، الدار العربية للعلوم ناشرون، منشورات الاختلاف، لبنان، الجزائر، ط1، 1429هـ-2008م، ص 9.

[22] ينظر: المرجع نفسه، ص 37.

[23] ينظر: المرجع نفسه، ص 55.

يناقش دريدا في كتابه أفق ذلك الفعل الاستعماري لمنع اللغة، ولا سيما العربية والأمازيغية في المستعمرة الفرنسية، وتبقى العربية فضاء لدريدا فهي لغة الجار، والجوار العربي، أو المغاربي، وهي اللغة التي باتت لغة ثانية مرشحة للتعاطي، ولكنها من دون أي تشجيع على دراستها، فالنظام الفرنسي الاستعماري جعل من الفرنسية اللغة الأولى، في حين أن جعل اللاتينية لغة ثانية إجبارية لاجتياز المرحلة المدرسية، مما يعني أن هنالك دفعا للعربية للتأخر، للمنع، أو للإقصاء، وهذا يعد شبيها بما نعاني منه من تراجع أثر العربية بوصفها لغة مستقبلية، يمكن أن يحول دون الاستثمار بها. إن الفعل الكولونيالي يحضر باللغة، وهذا يتم عبر نسق التعيين كما يقول دريدا «فكل ثقافة في الأصل هي كولونيالية (استعمارية) بحيث أن الاعتماد على الاشتقاق وحده غير كاف، كما ينبغي أن نذكر. فكل ثقافة أيضا تتكون عبر فرضها أحادي الجانب لما يشبه سياسة معينة حول اللغة، فالسيطرة كما نعلم تبدأ عبر تملك سياسة معينة حول اللغة، فالسيطرة كما نعلم، تبدأ عبر تملك سلطة التعيين، الفرض ومن ثم شرعنة التسميات المختلفة». هذا المنع الاستعماري قد مورس تجاه دريدا حيث أقصي عن اللغة العربية والأمازيغية والمغاربية عامة، كما أقصي عن الثقافة الأوروبية برمتها، وعن الذاكرة اليهودية، وهنا تنشا إشكالية الهوية، وفقدان التواصل في زمن أحوج ما يكون له .

ومع كل ما ورد في هذه الوثيقة الفلسفية من دلالات ومعاني خاصة بدريدا نفسه، تتعلق بما يؤرقه وما يشكل لديه هاجسا أو لغزا يسعى لاكتشافه وحله، << من خلال تدويرات لغوية معقدة، وأساليب تعود بنا إلى تقنيات التفكيك الكتابية، وأهم تلك الأسئلة على الإطلاق، تلك المتعلقة بمسألة انتمائه الهوياتي المتأرجح بين أرض إسمها الجزائر، ودولة اسمها فرنسا، وطائفة اسمها الطائفة اليهودية، بمعنى هل الانتماء الحقيقي يكون للأرض، أم للدولة، أم للديانة، أم أنه لا هذا ولا ذاك لأن الانتماء الحقيقي والأصيل يكون للغة التي نتحدث بها ونبدع بها وفيها>>[24]. إن ما يهمنا بالدرجة الأولى من هذا الكتاب، وفي هذه الدراسة تحديدا ما يتعلق بمفهومه لكل من اللغة والهوية، وحدود العلاقة بينهما.

مفهوم اللغة عند جاك دريدا:

ينطلق جاك دريدا في كتابه " أحادية الأخر اللغوية" من منطلق لغته التي يتقنها، أو بالأحرى من أحاديته اللغوية، إذ يقول: << أنا أحادي اللغة Monolingue، وأحاديتي اللغوية هذه كانت وستبقى بيتي، هكذا أحسّها، بل وهكذا أسكنها وتسكنني، وهكذا ستبقى. . . هذه الأحادية اللغوية بالنسبة لي هي أنا ذاتي. . . على أن هذه اللغة، اللغة الوحيدة التي نذرت نفسي للتحدث بها من المهد إلى اللحد، هي كما ترى ليست لغتي، والحق أنها لم تكن كذلك مطلقا>>[25]، فمسلمة أن اللغة الوحيدة التي يتقنها ليست لغته، وهذا مكمن آلامه وعذاباته. يقول دريدا << نعم، أنا لا أملك إلا لغة واحدة، ومع ذلك فهي ليست لغتي>>[26].

وينتقل في موضع آخر إلى القول:

<< - لايمكننا أن نتكلم أبدا إلا لغة واحدة (لسانا واحدا)

– لا يمكننا أن نتكلم لغة واحدة فقط (لا وجود للسان خالص)>>[27].

كيف يحدث أن تفقد لغتك؟ وأن لا تستطيع أن تتحدث إلا لغة «آخرك»؟، من هنا يأتي السؤال الذي لا يقل أهمية: هل نمتلك اللغة أم إنها تمتلكنا؟ هل نتحدثها أم تتحدث هي وتاريخها العميق والسحيق من خلالنا؟ ذلك أن اللغة

---

[24] المرجع نفسه، مقدمة المترجم، ص 11.

[25] المرجع نفسه، ص ص 24،23 .

[26] المرجع نفسه، ص 24.

[27] المرجع نفسه، ص 34.

ليست << مُلكًا طبيعيًا لأحد>>[28]، فعن طريقها يحاول السيد، المُستعمر، أن << يفرض على الآخرين بالقوة حينًا وبالمكر والحيلة أحيانًا أخرى، أن يؤمنوا بما يريده إيمانهم بالمعجزات، بالبلاغة، بالمدرسة أو بالجيش>> [29]. يتجلى ذلك بشكلٍ واضح وجليّ في أحاديثنا اليومية المستمرة، عندما نستمع لحديثٍ متبادل بلغتنا الأم (الأصلية) وتستشكل علينا بعض المفردات، التي نعتقد أننا نحُيط علمًا بهذه اللغة وكل مكنوناتها بمعنى آخر: نعتقد أحيانا بأننا نمتلك اللغة لأننا نعرفها بكل تفاصيلها، لكن المفاجأة بأننا لا نعرف إلا بعضها وليس كلها، مما يعني بأن "التملك المطلق" هو مجرد فرضية، ضمن فرضيات كثيرة نعتقد بها عن اللغة التي نتحدث بها.

انطلاقا من مسلمات تم نقضها وتحليلها حول الأحادية اللغوية، يمكن القول أن :<<الأحادية اللغوية نموذج من الضياع حيث يتوصل دريدا الذي يحوصل ما توصل من مناقشة، تتسم بأنها ذات منحى تفكيكي؛ ليخلص إلى أن أحادي اللغة الذي يتحدث عنه، هو الذي يتحدث لغة معينة، ولكنه في الحقيقة محروم منها، إنها ليست لغته، وبذلك فإنه سوف يكون محبوس الكتابة، وعقيم التّعبير>>[30].

ويقول دريدا أن << لغة قوم ليست هي لسانهم بالضرورة، ولسان قوم ليس هو لهجتهم بداهة>>[31]، وعن التعددية اللغوية يقول: << الأشخاص الذين يتقنون لغات عدة يميلون عادة إلى التحدث بلغة واحدة، حتى وإن كانت هذه الأخيرة مجزأة، فلجهة أنها لا تستطيع إلا أن تقدم وعودا للآخر ولذاتها على حدّ سواء، عبر التهديد بلجوئها للتجزيئ والتقطيع، فإن لغة معينة لا يمكنها إلا أن تتحدث هي ذاتها عن ذاتها، إذ لا يمكننا أن نتحدث عن لغة ما إلا بلغة هذه اللغة ذاتها، حتى عندما نودّ التخلّص منها>>[32]، بمعنى أن الإنسان يفكر بلغة واحدة، هي اللغة التي يتقنها ويتمكن من التأليف والتحدث بها بطلاقة، أما اللغات الأخرى، والتي إن كان يتقنها أيضا، إلا أنه لا يفكر في حقيقة الأمر ولا يتحدث بها، إلا من منطلق اللغة الأولى.

مفهوم الهويةعند جاك دريدا:

يرى دريدا : << أن التساؤل حول هذه الهوية، بما هي مفهوم شفاف ينكشف على ذاته، كان محل افتراض وبطريقة عقائدية، ضمن سيرورة المناقشات القائمة حول الأحادية الثقافية Monoculturalisme، أو حول التعددية الثقافية Multiculturalisme، أو حول الجنسية (التابعية)، والانتماء بعامة. >>[33]، ثم يضيف قائلا: << على أننا وقبل أن نبادر إلى تبيان هوية الذات، يجدر بنا أن نتساءل حول ماهية الذات المتماهية Ipséité، ذلك أن هذه الأخيرة لا تختزل فحسب في تلك القدرة المجردة على قول "أنا" في مستهل كلامها، بل إنها قد تعني في مستهل كلامها، بل إنها قد تعني في المقام الأول إمكانية قول "أنا أستطيع" عوضا عن قولي المجتزأ "أنا". >>[34]

ويعرف المواطنة بقوله:<< مع أن مفهوم المواطنة في حدود ما نعلم، لا يمكنه تحديد ماهية المشاركة الثقافية، اللغوية والتاريخية المرجوة، بل إنه لا يمكنه تغطية هذه الالتواءات والتجاذبات، بالرغم من أنه ليس محمولا سطحيا أو بنية فوقية تطفو على سطح التجربة، خاصة إذا ما علمنا أن هذه المواطنة هي بكل حالاتها عارضة،

---

[28] المرجع نفسه، 52

[29] المرجع نفسه، ص52

[30] رامي أبو شهاب، جاكدريدافي«أحاديةالآخراللغوية»: اللغةفيحدودالتملك...المنع...الإقصاء،موقع: http://www.alquds.co.uk/?p=429494 تاريخ: 2015/11/08، 16:39.

[31] جاك دريدا، أحادية الآخر اللغوية أو في الترميم الأصلي،ص 32.

[32] المرجع نفسه، ص 50.

[33] المرجع نفسه، ص40.

[34] المرجع نفسه، ص 40.

حديثة العهد، مهددة وأكثر اصطناعية من أي وقت مضى>>[35]، فهو بهذا يشير إلى عدم قدرة المواطنة على تحديد هوية المرء، تبعا لعدم ثباتها، فهي قابلة للتغيير، حديثة غير أزلية.

فجاك دريدا مواطن فرنسي انتزعت منه المواطنة في فترة من الفترات واسترجعها فيما بعد، و بينهما كان بلا جنسية، ذلك أنها لا تعني هنا جواز السفر أو «البطاقة الخضراء» أو الحصانة أو حق الانتخاب[36]بل تتعدى ذلك وتتجاوزه. لذلك عندما يتحدث دريدا عن هذه الوضعية فهو يتحدث بصيغة الجمع التي تشمل الكثير من الأشخاص الذين يتقاسمون هذا الإحراج الإنساني العميق.

وبذلك فإن التشتت الهوياتي لليهود عامة، ولجاك دريدا خاصة هو ما يحاول التعليق عليه ضمن هذا الطرح الفلسفي العميق، وهو ما يعكس حنينه لهويته الأصلية اليهودية، وللغتهم الأم العبرية، حيث منع من الوطن الأصلي، ومنع من تعلم لغته الأم، وأصبح مالكا للغة ليست لغته بهوية مشتتة مضطربة.

خاتـــــمة:

– اللغة هوية، وليست "الهوية" لغةً، بمعنى أن اللغة ليست المقوم الوحيد للهوية، وإن كانت من أهم هذه المقومات، وأشدها خصباً وعمقاً وتركيباً. إن العلاقة بين اللغة والهوية هي علاقة الخاص بالعام، فالهوية أعم من اللغة؛ لأن الهوية لها تجليات عديدة غير "اللغة" إذ إنها (الهوية) ببساطة متناهية ليست سوى تلك القواسم المشتركة أو القدر المتفق عليه بين مجموعة من الناس، ذلك الذي يميزهم ويوحدهم، وليست اللغة وحدها التي تقوم بهذه المهمة.

– اللغة هوية ناطقة، أي أنها هوية معبّر عنها برموز مفهومة.

– يطرح جاك دريدا عدة نقاط، من بينها:

– لا يفكر الإنسان إلا بلغة واحدة، هي اللغة التي يتقنها ويتمكن من التأليف والتحدث بها بطلاقة، أما اللغات الأخرى، والتي إن كان يتقنها أيضا، إلا أنه لا يفكر في حقيقة الأمر ولا يتحدث بها، إلا من منطلق اللغة الأولى.

– الأحادية اللغوية نموذج من الضياع،أحادي اللغة الذي يتحدث عنه، هو الذي يتحدث لغة معينة ولكنه في الحقيقة محروم منها، إنها ليست لغته، وبذلك فإنه سوف يكون محبوس الكتابة، وعقيم التّعبير.

– لا ترتبط استمرارية التعدد اللغوي في سياقٍ زماني أو مكاني معين على السلطة السياسية القائمة في مرحلة ما، بل ترتبط أيضًا بالكثير من العوامل المجتمعية التي من الضروري تواجدها للحفاظ على اللغة الأم (الأصلية) بوصفها إمكانية تفاهم مشتركة للجميع، مع ضرورة الاحتفاظ والتمسك بالتنوع اللغوي الذي لا يمكن الاستغناء عنه أو إهماله في الأحوال الطبيعية.

– يبحث جاك دريدا من خلال هذا التحليل الفلسفي العميق عن هوية واسعة بإمكانها احتواء التشتت الذي يعيشه، هوية تحمل جميع المتناقضات. وأن الهوية الحقيقية في رأيه هي ما تكون فيها اللغة أصلية، والموطن واحد تحكمه سلطة سياسية لغتها هي لغته، والدين مشترك، بمعنى يسعى لأن تكون لليهودي هوية تحدد لغته، ووطنه، دولته، ودينه.

[35] المرجع نفسه، ص 41

[36] المرجع نفسه، ص41